فلسفة بناء المجتمعات المهنية في مشروع تمام "التطوير المستند إلى المدرسة"

"كيف يمكن للمهنة أن تبقى، ناهيك أن تنتعش وتتطور مادام أربابها معزولين عن بعضهم البعض من ناحية، وعن قواعد المعلومات الثرية من ناحية أخرى، وهما أمران يناط بهما النجاح والتميز في مهنة التدريس؛ ليس الأمر بخير ما لم تكن هناك روابط بين المعلمين وبعضهم وبين المعلمين كافة وقواعد المعلومات. إن العزلة المهنية تخنق النمو المهني و تئده في مهده، وما من مجتمع من مجتمعات المعلمين يمكن أن ينشأ دون أن يتحد في رابطة أو جماعة من المعلمين." [1]

قليلة هي المشاريع العربية التربوية التي عمّرت، ونكاد نجزم أن مشروع تمام "التطوير المستند إلى المدرسة" هو المشروع العربي الوحيد الذي استمر تسع سنوات دون انقطاع ولا يزال آملين له الاستمرار والانتشار ؛ حيث انطلق هذا المشروع عام 2007 عبر مذكرة تفاهم وقعت بين الجامعية الأمريكية في بيروت ومؤسسة الفكر العربي الممولة له منذ بدايته.

يشرف على المشروع باحثان رئيسيان يعملان في دائرة التربية بالجامعة الأمريكية في بيروت هما الدكتورة ريما كرامي، أستاذة مشاركة في القيادة التربوية، والدكتور صوما بوجوده، بروفيسور في تعليم العلوم. كما يتضمن فريقا موجها مؤلفا من باحثات ومستشارات.

انطلق المشروع سنة 2007 عبر العمل مع فرق مدرسية من تسع مدارس في ثلاث بلدان عربية: المملكة العربية السعودية 03 مدارس، لبنان 03 مدارس، والأردن 03 مدارس. ثم توسع ليضم إلى غاية اليوم 39 مدرسة من سبع دول عربية هي: قطر، لبنان، المملكة العربية السعودية، الأردن، سلطنة عُمان، مصر والسودان.

ويضم تمام حاليا 130 تربويا من معلمين ومديري مدارس، وإداريين ومنسقين، كما ويضم 14 باحثا من 08 جامعات مختلفة و 20 ممثلا عن وزارات التربية والتعليم.

وأمام هذه الأرقام فإننا أمام مُحصلة تُقارب الـ 200 فرد من بلدان مختلفة، ورهان مشروع تمام –طبقا لرؤيته وأهدافه– أن يحوّل هؤلاء الأفراد إلى مجتمعات مهنية.

إن مقاربة التعليم الجديد في الكثير من المشاريع التربوية النهضوية تركز على المعلم وعلى المدرسة وعلى الطاقات البشرية الكامنة في المعلم لتستثمرها من أجل المتعلم، يقول تشو يونغ تشين في كتابه

[1] ويليام باول: مؤلّف جماعي: التربية الدولية تجارب وخبرات عالمية معاصرة في تحسين التدريس والإدارة والجودة،تحرير ماري هايدن وجيف طومبسون، ترجمة محمد أمين، المراجعة العلمية دمحمد عبد الحميد محمد، مجموعة النيل العربية، الطبعة الأولى ٢٠٠٣، ص ١٥١.

التعليم الجديد في الصين: *"حاليا وفي معظم المدارس، يكتم كل معلم ما في قلبه تماما. يبدو المعلمون كأنهم غرباء يعيشون في مدرسة واحدة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، يعيش بعض المعلمين الشبان المتطلعين إلى النمو السريع كمن يحارب وحده. لذلك ترى تجربة التعليم الجديد أنه من الضروري كسر الفجوة بين المعلمين، وتشكيل عادة الحوار، لرفع المستوى الاختصاصي للمعلمين على أساس القراءة الاختصاصية والكتابة الاختصاصية والاستفادة من أسرة التنمية الاختصاصية"* التعليم الجديد في الصين، ص 116. ولعل هذا ما نجده صريحا في فلسفة مشروع تمام حيث يعلن أن من أهدافه: بناء جسور للحوار والتعاون والتشبيك بين مختلف المدارس من جهة وبين المجتمع الأهلي والجامعات ووزارات التربية والتعليم من جهة أخرى، كما نجده يعتبر التعاون المهني والقيادة التشاركية والحوار والممارسة التفكرية والرعاية المهنية ركائز أساسية للتطوير المستند الى المدرسة، وهذه الركائز كلها تعتبر ركيزة واحدة لبناء المجتمع المهني. فلماذا هذه المقاربة؟

يَعتبر مشروع تمام أن بناء مجتمعات تمام المهنية مدخل لردم الهوة المزمنة الموجودة بين الممارسين التربويين، والباحثين الأكاديميين، وصناع القرار، وبهذه المقاربة فهو يستهدف ثلاثة مستويات أساسية بالتغيير (الممارسين، المؤسسة، الثقافة المهنية)؛ حيث أن الممارس يتطور بتطوير مهاراته، وتطوير المهارات ينتج قيما مهنية عليا، وهذا لا يتأتى إلا في بوتقة مؤسسة تتفاعل فيها الاستراتيجيات والتنظيم الإداري بلُب الحاجات البشرية. مما يعني أن تمام يعتبر المدرسة والفرق التربوية مجتمعات أو أُسر مهنية، تُدار بمنطق علم الاجتماع التربوي وعلم النفس الاجتماعي والمعرفي وبعلوم التنمية البشرية، لذا يرى في هذا المقاربة ركيزة أساسية للتطوير المستند إلى المدرسة لمواكبة الثورة المعرفية؛ ذلك أنّ ثورة المعلومات والمعرفة القائمة حاليا تعتمد أساسا وبقوة على كل ما هو متجدد من معرفة **العنصر البشري** الذي فجّر هذه الثورة أساسا، وأبدعها، وأصبح صاحب اليد العليا في الهيمنة عليها لتحقيق طموحاته وآماله التنموية، ذلك المصدر المتجدد الذي لا ينضب، بل ينمو ويتجدد بسرعة فائقة مقارنة بالعناصر الأخرى من خلال اكتشافه ورعايته، وتنمية قدراته، ومواهبه، واتجاهاته، لذلك يحظى المعلمون في المشاريع التربوية النهضوية بمعاملة خاصة تجعل منهم أفراد أسرة اختصاصية تتشارك مثُلا وقيما مهنية عليا؛ "الأسرة(الجماعة)أحد المفاتيح المهمة لنجاح عمل الذين يسعون وراء المُثل التربوية. المُثُل المشتركة ذات قوة عظيمة. لذلك تدعو تجربة التعليم الجديد إلى القراءة المشتركة والكتابة المشتركة والحياة

المشتركة، ليتعلم المعلمون بعضهم من بعض، بحسب مُثلهم المشتركة، ليعيشوا حياة تربوية سعيدة كاملة."

التعليم الجديد في الصين

ومقاربة بناء المجتمعات المهنية في المجال التربوي تقضي بإعادة النظر في دور المعلم باعتباره من أهم عناصر التغيير، يقول كمال دواني بهذا الصدد :" يهمنا أن نرى المعلم وقد أصبح عنصرا للتغيير بدلا من أن يكون عنصرا يجب تغييره كما هو الحال في ماضينا وحاضرنا. كما يهمنا أن نعدّ معلمين تأمليين شغوفين للمعرفة ويشعرون دائما أنهم لحاجة إلى تعلم. يهمنا كذلك أن نرى أبناءنا ينالون ما يستحقون من تعلم مفيد لحياتهم ومجتمعهم، ومعرفة وخبرة تعينهم على مواجهة تحديات العصر"[٢].

ومن خلال تتبعي لمشروع تمام لمستُ شيئا مميزا تشترك فيه الفرق المدرسية وهو استنادهم إلى قالب علمي للعمل المشترك يسمى "رحلة تمام"، كما ويتمتعون بسمات تجعلك تنتبه بسرعة إلى تماميتهم.

ولعل ما يميز مقاربة بناء المجتمعات المهنية في مشروع تمام، أن هذه المقاربة إذ تشجع الفرق التربوية على التوحد كفريق إلا أن رحلة تمام لكل فريق تخلق مجتمعات تمامية من حيث السمات الكبرى ومتنوعة من حيث محتوى رحلة كل فريق، فتعني مقاربة بناء مجتمعات تمام مقاربة بناء الثراء والتنوع والتفتح المهني للفرق التربوية على بعضها، وهذا ما لمسته في الفرق المشاركة في مؤتمر تمام الحادي عشر الذي عقد مايو الفارط من السنة الجارية بعمّان الأردن تحت عنوان: *تمام كحركة تربوية تطويرية: نحو بناء المجتمعات المهنية التعلمية لخدمة التعلم والطالب*. وقد خضخض هذا المؤتمر في خاطري كثيرا من القراءات ذات السياق المتصل، فأردت أن أشارك في توسيع هذه الرؤية بما رشح من تلك القراءات الرافدة لفلسفة بناء المجتمعات المهنية كمقاربة ناجحة لبناء التعلم والتعليم، ولعل من عجيب الأقدار أن تكون قراءاتي امتياح من معين ما تنتجه مؤسسة الفكر العربي وما تسهم به من ترجمة، حيث توافق حضوري لهذا المؤتمر قراءتي لكتاب التعليم الجديد في الصين من سلسلة حضارة واحدة، وأختم باقتباس منه يصب في سياق بناء المجتمعات المهنية التربوية حيث يقول كاتبه: " يعتبر استغلال الطاقة الكامنة للتلاميذ معرفة لقيمة حياة التلاميذ. لكننا نركز على التنمية المشتركة بين المعلمين والتلاميذ، وليس على التنمية مع التضحية بحياة المعلمين. علينا أن نهتم بصحة المعلمين، بل نقول إن تنمية المعلمين أهم من

[٢] كمال دواني، الفصل التاسع: نظرة مستقبلية حول إعداد المعلمين في العالم العربي،المؤسسات الجامعية لإعداد المعلمين في البلدان العربية، الكتاب السنوي السادس، منشورات الهيئة اللبنانية للعلوم التربوية،ص ٣٠٠.

تنمية التلاميذ. كيف يمكن أن تتحقق سعادة التلاميذ من دون سعادة المعلمين؟ عندما يمتلك المعلمون الثقة بأنفسهم، سيمتلكون قدرة غير محدودة على الإبداع." *التعليم الجديد في الصين* ص 64.

وباختصار لا يمكن الرقي بمستوى التلاميذ دون الرقي بمستوى أساتذتهم ومعلميهم، ولا يمكن الرقي بمستوى الأساتذة والمعلمين ما بقي كل واحد يحارب وحده في صمت. لقد آن الأوان لبناء المجتمعات المهنية التربوية من أجل الإنتاج و الانتشار والاستدامة من خلال التشبيك والحوار والتبادل. وهذا ما يرنو إليه القيمون على مشروع تمام تجسيدا للتطوير المستند إلى المدرسة ذلك المجتمع المهني الصغير، الذي سيغدو كبيرا لا حدود له في قابل الأيام.

عمر برمان الثلاثاء 28-06-2016